التمـهـيـد

منذ الأزل وقد اعتقد الإنسان في وجود قوى خفية أعلى وأكبر وأكثر سيطرة منه على الحياة من حوله، ومن هنا فإن الإنسان هو الكائن الحي المتدين، أو بعبارة أخرى الذي تبدو عليه مظاهر التدين، وإن ذهبنا إلى أن الخلائق الأخرى متدينة أو لديها ما يشير إلى التدين، فإنها لا تتباين في مظاهر التدين مطلقاً، وأسوق في هذا التمهيد أمرين:

الأول: الحديث عن الباعث للتأليف في هذا المجال.

الآخر: نظرة بانورامية على مظاهر التدين عبر التاريخ.

أولاً[1]: كنت لما اعتقدت أن الحياة تسير إلى نهاية محتومة وهي الموت والفناء، وأعتقد أن هناك آخرة وأن الجميع سيُحاسب على الحياة: كيف قضى عمره وعن ماله، وذلك مصداقاً للآيات الكريمة:" يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لاَّ تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ" (التوبة:٩٤) وكذا قوله تعالى:" وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ "(التوبة :١٠٥) وقوله تعالى:" قُلْ إِنَّ الموتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فإِنَّه مُلاقِيكُم ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الغَيبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ" (الجمعة:٨)

وكانت مسألة التوحيد لا تأخذ عندي وقتاً ولا تفكيراً؛ إذ أن الله واحد لا شريك له ولا ندّ ولا والد ولا ولد، وأرفض كل تعليلات النصارى (في التعدد)، وكنت قد كتبت عن ذلك التصدي للعقل باسم المسيحية في سفر سابق منذ عدة سنوات خلت.[2] وبالطبع فإن التوحيد علم يقوم الأزهر الشريف بتدريسه والتأكيد عليه، ويدخل في علم التوحيد الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، والبعث والحساب و..و..الخ.[3]

١- لما انتهت سنة ٢٠١٢ بدأ الشعور بالعري يتنابني – عري ديني وحضاري وتاريخي وربما ثقافي- فالحضارة المصرية الأقدم من الدين الإسلامي ، في فرعونيتها ،لا أفهمها ولا أعرف سوى كفر ها وشركها وتعددها للآلهة وإن فعلت الحرائق المادية من تماثيل ومعابد ومقابر صحمة كالأهرامات ، ثم كانت نهاها لكن عابر سبيل يحتلها ويقيم فيها عارياً وحاكما واستمر الوضع حتى ١٩٥٢،أما عن العري الديني فحريب أهل الفرق والمذهب هي مذاهب تناصب بعضها العداء أكثر ما تناصب المغايرين في الملة؛ ورأيت أن كل هذا لسبب الوصول إلى السلطة، ثم لا دين ولا قومية ولا وطنية، بل خراب وظلام وهو ما نعانيه للحظة الآلية في عام ٢٠١٣ وأظنه سيستمر ردحاً قادماً

٢- أقصد كتابنا تأملات حول نساء الحياة، مركز الحضارة العربية ، ط١ ، ٢٠١٠م، في المبحث الخاص بمريم أم المسيح ، حيث أكد القديس أوغسطين أنه يؤمن بالمسيحية؛ لأنها ديانة غير مفهومة ،ولا تخاطب العقل

٣-وهذه حقائق يؤكدها القرآن الكريم ،وإيماناً بالقرآن الكريم أعظم من إيماني بأن كاتب تلك السطور حي وعاقل، ومن ذلك قوله تعالى " آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ" (البقرة ٢٨٥)

غير أن ذلك كله يدخل في تعداد إيمان العوام (ولعله الإيمان الخير) ولما تقدمت في الدراسات قليلاً، وشغفت بالقراءة والكتابة، والدراسة والبحث، هالني بعد الهوجة المصرية[1] هذا الكم الهائل من المدعين على الإسلام زوراً وبهتاناً أنهم هم وحدهم الممثلون الشرعيون للدين، وأن من عداهم لا يمثل الحقيقة ولا يمتلك الأدوات الحقيقية،ما جعلني أعود بالفكر إلى الوراء، أيام تأسيس الدين الإسلامي، ورأيت أن الجيل الأول لم يمض حتى ثارت داخله الخلافات، وكنت على يقين أن السبب الأكبر في انحسار المد الإسلامي وتراجعه عن قيادة العالم كله هو الطمع في السلطة والرغبة في الوصول إلى الحكم، وإن كان ذلك – أحياناً – على حساب الشريك الإسلامي لحساب العدو المراد تطويعه وتنويره بنور الدين الإسلام، وحدث ذلك كثيرا، فكم تحالف المسلم مع الفرنجي لمحاربة المسلم (حدث بين هارون الرشيد وشارلمان ضد بني أمية بالأندلس) وحدثت مخاطبات بين الشاه الصفوي الشيعي والفرنجة ضد الأتراك السنة، والأمثال كثيرة وتترى.

كل هذا صدمني في إيماني بأمرين:

الأول: وحدة الصف.

الآخر: إمكانية التوصل إلى جسور مشتركة للوصول إلى عدو مشترك.

ما يعني أننا مازلنا نتخبط، وسيرتد الدين الذي نحمله، وبرهنت على أن العالم كان من الممكن أن يصير مؤمناً بالإسلام، برغم أن نبيه ولغته عربيان، إلا أنه لسبب أن المتحدث باسم الدين الإسلامي هم عرب فلا يؤمن به أحد، ولازلت أقرأ في الصراعات العربية الغربية من يقول – صادقاً بوجه من الوجوه – إن الرجل الإنجليزي الواحد بكل العرب[2].

ولما كنت في بداية حياتي الفكرية فقد قررت أن أرهن سنوات عمري الباقية في التنقيب عن أسباب الخلاف السياسي التي أدت إلى وجود اختلافات مذهبية تستند إلى العقيدة والشرع، تحت الغطاء الديني للسيطرة وبسط النفوذ أولاً، وهو الطريق المؤدي – لاحقاً- إلى الوصول للحكم، ومن بعدها لن نجد مشروعاً إسلامياً، ولا عداوات جهرية لأعداء الأمس، وساعتها سنتيقن جميعاً أننا – على أحسن تقدير- مزيفون، وغاية ما نزيف أن نزيف الدين فيرتد إلى نحورنا.

١- في تاريخ مصر عدة أحداث نطلق عليها اسم الهوجة الأولى ما قام به عرابي ورفاقه، حيث تسلموا أمور البلاد ولكنهم عجزوا عن توجيه دفة الأحداث وانتهى الأمر باحتلال بريطانيا لمصر عام ١٨٨٢، والثانية الأحداث التي وقعت من ٢٥ يناير إلى ١١ فبراير ٢٠١١، وذلك بخروج المظاهرات يوم ٢٥ يناير في عيد الشرطة ،ثم تطورت بأيادٍ خارجية وداخلية إلى مظاهر ثورة ،أقول مظاهر ثورة ولا أعترف بها ثورة؛ فالثورة في العرف السياسي الدولي تعريفات وتقنيات حلت منها مظاهر الهوجة المصرية، ثم دخلت مصر في نفق مظلم انتهى بوصول إحدى الجماعات السياسية / دينية إلى السلطة وهي جماعة حسن البنا والمنظر الحديث سيد قطب

٢- جاء هذا في كتاب مارك كورتيس تاريخ التآمر السري بين بريطانيا والأصوليين ، ترجمة كمال السيد، المجلس القومي للترجمة ، ط١ ، ٢٠١٢م، في معرض الحديث عن الحرب العربية الإسرائيلية وموقف بريطانيا منها وقول أحد قادة الإنجليز "إن رجلاً إنجليزيا واحداً يكل العرب واليهود"

وبعد ... فإني سأبحث تأسيس الدول القائم على خلفية دينية في الكتب القادمة ([1]) وسأبدأ أولاً في السفر القادم بالحديث مطولاً عن أسباب الصراعات بين الأديان السماوية، تمهيدا للحديث عن النزاعات المفصلة عن الصراعات الإسلامية السنية في الوطن العربي.

ثانياً: نظرة بانورامية على مظاهر التدين عبر التاريخ.

مرَّ الإنسان في مراحل عبادته بعبادة ست مجموعات هي([2]):

الأولى: المجموعة الشمسية:

أ- القمر: وكان ذلك في مراحل الإنسان الأولى .(مرحلة الصيد والقنص ومرحلة الرعي)

ب- الشمس: (مرحلة الاستقرار والزراعة)

جـ - كل نجم في السماء (المريخ - عطارد - ...الخ)

الثانية: الأرض:

مثل: الأشجار، والجبال المقدسة، والأنهار.

الثالثة: الجنس:

عبدت بعض الشعوب الجنس، وانتشر ذلك في: مصر والهند وبابل وأشور والرومان واليونان. وكان الناس يجلّون الوظيفة الجنسية والجانب الجنسي؛ ولذلك عبدوا بعض الحيوانات كالعجل والثعبان؛ لِما لهما من قدرة جنسية وقوة إلهية على الإنجاب.

وكانت عشتاروت في سوريا تمثل إلهة الجنس والإخصاب ،وانتشرت في القديم البغايا المقدسات..الخ

الرابعة: الحيوان:

كانت كافة الحيوانات عبر التاريخ موضع عبادة من البشرية، فقد عبد المصريون: العجل، والتمساح، والصقر، والبقرة، والإوز، والكبش، والقط، والقرد وابن آوى، الخ. ولما تحولت العبادة إلى البشر ظلت

١- أقصد بالسفر القادم (قيد البحث اليوم) الحروب الإبراهيمية ، وأقصد بها الحروب التي نشبت بين أصحاب الديانات الإبراهيمية الثلاث اليهودية – المسيحية – الإسلام ، وما كان من حروب وصراعات بين كل واحد منها على حدة وبينهم وبعضهم البعض

٢- المادة العلمية ها كلها مستفادة من كتاب أستاذنا الدكتور إمام عبد الفتاح إمام "مدخل إلى الفلسفة، في الفصل الخاص بالحديث عن الفلسفة والدين"، مؤسسة دار الكتب ، ط٦ ، ١٩٩٣م، صـ ٩٧- ١٢٦

محتفظة بصورتها الحيوانية.([1])

الخامسة: الإنسان:

تحول الإنسان من عبادة الحيوان إلى عبادة الإنسان، وقد حكى القرآن الكريم ذلك الأمر، حيث وصف حال فرعون مع قومه في قوله تعالى:" وَقَالَ فِرْعَونُ يَا أَيُّهَا المَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي "(القصص:٣٨) ثم تطور إلى أن صار الحاكم يحكم باسم الله ويفرض سلطانه على الناس باسم الحق الإلهي المقدس(الحكم الثيوقراطي).

السادسة: الديانات البشرية:

وهي تتوزع في قسمين:
الأول: ديانات الحضارات القديمة: ديانة التوحيد عند إخناتون في مصر القديمة- والديانة الزرادشتية في فارس(إله الخير وإله الشر) والديانة البوذية والهندية القديمة والكونفوشية في الصين .
الثاني: الديانات السماوية الثلاث: اليهودية – المسيحية – الإسلام.

كانت تلك هي مراحل الدين وصور العبادة عند الإنسان كما رصدها العلماء مستعينين بالتاريخ والكشوف والآثار وما زال أكثرها باقيًا حتى اليوم (كديانات آسيا) ولا تختلف الديانات السماوية إلا في الشريعة والمنهاج والغاية يفترض أن تكون متحدة مصداقا لقول الله تعالى:" وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِّن رِّزقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ "(الذاريات:٥٦-٥٧) ونفهم من سياق تلك الآية الكريمة أن الله تعالى خلق الجن (وهم قوم مغايرون للإنس وهناك سياقات متعددة للحديث عنهم) والإنس وهم بنو آدم (وقصة خلق آدم وخروجه من الجنة مشهورة في جميع الديانات السماوية) لعبادة الله تعالى وحده وإفراده بالعبودية دون سواه.

وقد يحق للمتفكر أن يسأل: هل قول الله بأنه خلق الجن والإنس ليعبدوه، هل الخلق هنا في الآية – بحسب ظاهرها- غائي أم سببي؟ فإن كان الخلق لغاية العبادة، فلِمَ عبدوا سواه كثيرا ولا يزالون؟ وإن كانت العبادة سبباً للخلق، فما حاجة الله تعالى من أن يعبده البشر وقد يضلون؟

١- لقد نظر الفيلسوف الكبير هيجل إلى هذا الأمر بإمعان شديد وخلص إلى أن قال " ونحن بالمثل عندما نتأمل حياة الحيوان وأفعاله ندهش من سلوكه الغريزي أعني من تكيف سلوكه وملاءمة حركاته للغرض الذي تسعى إليه – ومن عدم سكونه وخفة حركه وحيويته ، فالحيوانات تتحرك بسرعة متزايدة وتتمتع بذكاء كبير بالنسبة لأغراض حياتها في الوقت الذي تكون فيه صامتة ومنغلقة على نفسها وليس في استطاعتنا أن نعرف ماذا تضمر هذه الحيوانات المتوحشة كما أننا لا نستطيع أن نطمئن إليها " جورج فلهلم هيجل العالم الشرقي ،ترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام ، دار التنوير،د ت، صـ٢٠٤

هناك في الشأن الديني من الناحية الفلسفية الكثير من الإشكاليات يطرحها الفلاسفة، ولما لم يتعمقها بحرص الشيخ الإمام محمد الغزالي خرج من الفلسفة بكتابه المنقذ من الضلال، ثم كتب كتابه تهافت الفلاسفة، ولما تعمق الفكر الفلسفي القاضي أبو الوليد ابن رشد ردَّ عليه بكتابه تهافت التهافت، وكتب كتابه الشهير فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من اتصال. وقد قال في ذلك الفيلسوف الإنجليزي الأشهر فرنسيس بيكون (١٥٦١ -١٦٢٦) : " صحيح أن جرعة ضئيلة من الفلسفة تميل بذهن الإنسان إلى الإلحاد، غير أن التعمق في دراسة الفلسفة يلقي بالإنسان في أحضان الدين".([1])

ولما لم أكن مهموماً بنظرة الفلسفة للدين ولا طبيعة العلاقة بينهما، فسأخرج من هنا الآن، وسيأتي في هذا السفر الحديث عن الجنون الذي وصم به المعارضون للدين المستقيم أصحاب الدعوات الكبرى، وسيكون انطلاقي في الدراسة لظاهرة الجنون من الآيات القرآنية ومقدار فهم علماء الإسلام لهذا الأمر، ثم أتحدث عن النبوة والقرآن بتوسع بعض الشيء في حدود البحث، ثم أتحدث عن بعض الأباطيل، وأتحدث عن أكبر فرقتين في تاريخ المسلمين: الشيعة والخارج، بعد تفنيد الحجج التي تذهب إلى أن الدين الإسلامي دين محلي، وأبحث أسباب عدم انتشاره بشكل كبير ولا أستبق الأحداث، ثم الخاتمة ويأتي فيها ملخص لما تم عرضه والخلوص إليه من هذا السفر الضيق الصغير، وأخيرا فهرس بالموضوعات..

والله وحده القادر على ألا يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه،،، أسأله أن يسدد الخطى وينير القلب بالهدى، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

د. علاء الدين سعد جاويش

٢٥ أبريل ٢٠١٣

١- د إمام عبد الفتاح إمام ـ مدخل إلى الفلسفة ، صـ١١٢ وقد قسّم فيه المذاهب الفلسفية الدينية كالآتي
مذاهب التأليه وهي تنقسم إلى ثلاثة أقسام الأول مذهب التوحيد(الله) ،والثاني مذهب الشرك (التعدد) والثالث مذهب وحدة الوجود (الحلول) العالم والله حقيقة واحدة، والمذهب الثاني مذهب الألوهية الطبيعية أو الطبيعيين الإلهيين،والمذهب الثالث هو المذهب الإلحادي

المفتتح

• نظرة على الأحوال العربية قبل الرسالة المحمدية(١)

يتحدثُ أغلبُ كُتّاب السيرة المحمدية عن الظروف والملابسات التي كانت عليها الأمم المجاورة للعرب قبيل بعثة الرسول، ونجد في بعضها مغالاة شديدة للغاية، لا تستقيم مع تفكير العقل الحديث اليوم(٢)، ومن ثمَّ فإني أحاول فقط أن أبحث عن بعض أشهر الأحوال التي كانت موجودة، لا للمقارنة مع ما صارت إليه الأمور؛ ففي كل الأحوال ما حدث بعد البعثة هو ثورة كبرى لم يحدث في التاريخ البشري مثلها في مثل وقتها.

وأغلب الكتب التي في أيدينا تتحدث عن الفساد الديني والاختلافات المذهبية في الروم (الشام – مصر – بيزنطة) والمرتبط بالقهر والاستبداد السلطوي، وحكم الشعوب دون رغبة أو إرادة أبنائها، وكذا على الجانب الآخر يتحدثون عن فارس وما بها من مثالب لا تقل عن مثالب الروم، ثم عن شبه الجزيرة العربية وما انتابها من تبديل دين إبراهيم(الحنيفية) والتوجه إلى الأصنام لتقربهم إلى الله زلفي، ولا يهتمون بالآداب، ولا توجد قيم سلوكية شامخة، ولا تكاد توجد منظومة أخلاقية إلا في الحضيض، ويختم الكُتاب- جميعهم- هذا العرض بضرورة ظهور النبي محمد(ص) الذي كان يشكِّل كيانًا فريدًا وسط هذا اللهو والفساد البشري، فعكف عدة سنوات في الخلاء، وقبلها كان قائماً على بيته في مكة يرعى تجارة الزوجة، واشتهر بين الناس بالصادق الأمين، حتى يقول الإمام أبو زهرة:" إن حياة النبي قبل بعثته كلها كانت إرهاصات بالنبوة."(٣)

١- انظر كتاب جرجي زيدان العرب قبل الإسلام ، طبعة دار الهلال ، والذي تحدث فيه عن ٢٠ مصادر تاريخ العرب قبل الإسلام، العرب البائدة، دول اليمن أو الجنوب، العدنانية أو الإسماعيلية ، ويعتبر الكتاب من أهم المراجع عن تاريخ العرب قبل الإسلام؛ فقد بذل فيه المؤلف من الجهد ما لم أر له مثيلاً في المكتبة العربية ، في البحث والتنقيب والاستفادة من كل المصادر والعلوم الحديثة التي تكشف عن أصل العرب وطبيعة حياتهم ، وألحقه بكتاب ثانٍ عنوانه تاريخ آداب اللغة العربية، ثم كتابه الأهم تاريخ التمدن الإسلامي، والثلاثة كتب من أوفى المراجع في موضوعاتهم وأكثرها استقصاءً وأوفرها معلومات

٢- في كل الأحوال يحو كتاب السيرة المسلمين إلى التمهيد لضرورة خروج نبي آخر الزمان، اعتمادا على مقدار الفساد الذي كان موجودا من قبل البعثة، وللحق لا يستقيم أن يرسل الله رسولاً لكل ظواهر فساد تنتج في بقعة من الأرض بين الحين والآخر، وإلا لكان اتصال بعث الرسل قائماً حتى اليوم

٣-محمد أبو زهرة خاتم النبيين، دار الفكر العربي د ت، مج١، صـ٧

ينظر الناس إلى العالم قبيل النبوة الخاتمة ويقسِّمونه إلى قسمين رئيسيين :

الأول: القسم الشرقي من شبه الجزيرة العربية، حيث الديانات الوضعية لا السماوية، مثل الزرادشتية والمانوية والبوذية والبرهمية والمجوسية، والكونفوشية وغيرها، وبعضها يؤمن بالوحي وبعضها لا يؤمن بالتقاء الله مع البشر عن طريق الوحي على نحو ما سيأتي في الفصول القادمة، ولها كتب وتقوم على فلسفات كبيرة يعتنقها ملايين البشر، ولليوم مازالت قائمة.

الآخر: وهو العالم الواقع – تقريباً- غرب شبه الجزيرة العربية، وأهم سكان تلك المنطقة يعتنقون الديانتين اليهودية والمسيحية، وأغلب السكان يعتنقون المسيحية ولكنها مسيحية منقسمة على نفسها، فهناك ملكانيون، ويعقوبيون، وهناك وراثة للفسلفة اليونانية القديمة وبخاصة الفلسفة الأيونية التي تحل مشاكل العالم.

ووسط هذا العالم المضطرب قامت بعض الديانات على مجرد التصوف، وكان التصوف وهو عملية معقدة للغاية، الحل الأخير، خاصة في الديانة البوذية([1]) وقامت بعض الديانات على أساس السلب كـ:لا تفعل كذا، ولم تقدم جديدا سوى ذلك.

ويلاحظ الإمام أبو زهرة أن:" القرن السادس الميلادي كانت العقائد فيه غير قارّة في النفوس، والآراء تُخلق وتُعتنق ثم يُتعصب لها، وليس التعصب دليلاً على قوة الاعتقاد، بل التعصب دليل على الانحراف النفسي، والنظر الجانبي، وكذلك كان تعصب الملكانيين ضد اليعقوبيين.

- كذلك كانت النفوس مهيأة للعقيدة الصحيحة تعتنقها إذا ظهرت بيناتها، وقام الاستدلال المنطقي عليها، وخصوصًا أن الأفكار المرددة كانت أوهاماً، أو أقوالاً غير متميزة تميزاً عقلياً ."([2])

ويذكر ابن كثير في تاريخه - وغيره كثير - أن عمراً بن لحي الذي كان سيدًا لخزاعة، وكانت لخزاعة سدانة البيت الحرام، وأنه أول من أدخل عبادة الأوثان في مكة، وقد جاء بالأصنام من أرض البلقاء التي كان يسكنها العماليق.

١- انظر في هذا الموضوع الكتاب الجيد لوائر ستيس "التصوف والفلسفة ، ترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب،٢٠١٢م، وقد ذكر فيه الكاتب أن "كل تجربة بشرية بمهما لا تكون أبدا مجايدة من الناحية الانفعالية ،بل تحمل معها باستمرار شحنة عاطفية مؤثرة من نوع ما"صـ١٠، وقد تعرض للحديث المطول عن التصوف وذكر أن التصوف لا يزيد عن كونه شعوراً عميقاً مكثفاً حول ما نؤمن به عن الكون"صـ ٢٦ قسّم التصوف إلي نوعين كبيرين "تصوف انبساطي، وتصوف انطوائي، كما ميز في علاقة التصوف بالدين بين نوعين من التصوف الأول تصوف متّمي (لدين من الأديان سواء أكان سماوياً إبراهيميا، أو دين غير سماوي أسيوي) والآخر لا متّمي لأي دين على الإطلاق ،وأطلق عليه التصوف اللامتّمي ،بل يعايش التجربة مباشرة دون إسقاطات دينية وحيرات سابقة لآخرين في تطابق الذين والكتاب ممتع وعميق في دراسته وتناوله

٢- محمد أبو زهرة خاتم النبيين ، صـ٢٥

وبعض الروايات تتضارب، فبين من يؤكد أن الحياة في شبه الجزيرة قبيل الدعوة كانت ظلاماً في ظلام، فإذا بهم يرددون أن تلك البلاد شهدت عدداً كبيراً من الأنبياء، فمن زارها وأقام بها حيناً من الدهر كإبراهيم، ومن أقام فيها وأنذر قومه مثل: هود، وصالح، وشعيب. وسيأتي الحديث عن أن أرض العرب كانت الملاذ الآمن لأصحاب الديانات المضطهدة في العالم كله، فقد كانت اليهود تسكن يثرب وخيبر، والنصارى يسكنون الجنوب، والفارون يجدون الملاذ في الجزيرة.(١)

ولست أحبُّ أن أكرر الذي كتبه غيري في هذا الصدد، وإنما أود التنبيه على عدة أمور وأخلص من هذا الباب:

أولاً: الحديث عن اختصاص العرب بالنبوة والرسالة الخاتمة يُهاجم من قِبل الغربيين والشرقيين القدامى، ويبرره أهل الدين الإسلامي، وخاصة العرب، ولا جديد في تلك القضية قديمًا أو حديثاً.
ثانياً: الخلاصة في أن العرب كانت تنتمي إلى إبراهيم عليه السلام من جهة إسماعيل ابنه، وأن النبوة وراثة (كما سيرد) فإن النبي ورثها عن أبيه الأكبر والأبعد(إبراهيم أبو الأنبياء).
ثالثاً: إذا كانت النصرانية قد دخلت الامبراطورية الرومانية في القرن الثالث الميلادي باعتبارها ديانة الامبراطورية الرسمية، فإن الذي عليه العلماء الثقات أن روما لم تتنصر بقدر ما ترومت النصرانية. (فسدت النصرانية من عدة وجوه متأثرة بعقائد روما قبل النصرانية وأهمها الطبيعة الإلهية للمسيح والقول بالآب والابن والروح القدس)

كذلك فإن المد الإسلامي كان له أسباب من القوة والفتوة، والجزر كان بسبب الصراعات التي تنشب على السلطان، والتعصب القديم يظهر في صور أخرى.
معنى هذا أن الإسلام أيضاً أصابه شيء مما أصاب النصرانية بسبب ترومها.
رابعاً: في أمور النبوات لا يمكننا أن نسأل لماذا كان موطنها هنا أو هناك، فالله أعلم حيث يجعل رسالته، والله تعالى أوجد البشر وأوجد بينهم سبل الاتصالات، فلا يوجد قوم يكتمون عقائدهم، ولا يستطيعون. (٢)
خامساً: إن البشرية اليوم لا تقف من الحضارة الأمريكية الفتية والمتجددة موقفها من أصل ونشأة الدين الإسلامي، فأمريكا تقدمت عبر قرنين متأثرة بعصر التنوير في أوروبا (١٧٠٠-١٨٠٠م) ولم تستفد من عصر النهضة، فالمؤثرات كثيرة، غير أن الأهم هو الاستمرار .
سادساً: لابد عند دراسة الحضارة الإسلامية التفريق بين المد السياسي للدولة الإسلامية (الحكم باسم

١- لا خلاف أن النصارى كانوا يسكنون اليمن وقصة أبرهة وأصحاب الأخدود، وما كان من حروب بين الحبشة واليمن مشهور ، وقد جاء في القرآن تفصيل وإشارة إليه في سورة البروج وقد حارب الرسول اليهود كثيرًا على ما سيأتي، وطرد الوثنية نهائياً من الجزيرة ومنعهم من دخول البيت الحرام، حتى لم يعد أمامهم إلا الإسلام أو المَنْفى في مرحلة لاحقة عقب انتهاء حروب الردة ومانعي الزكاة

٢-حقيقة فإن اليهود لا يدعون غيرهم إلى الدخول في دينهم ، ولكن هذا لا يعني أن عقيدتهم معروفة للناس ، وهم لا يستطيعون كتمانها ، بل هم منقوقعون على أنفسهم فحسب

الدين الإسلامي) والدين الإسلامي ذاته (عقيدة وعبادة ومعاملة وفقه) فقد انحصرت الكثير من الدول التي تتحدث باسم الدين ولم ينحسر الدين نفسه كما سيأتي.

أخيراً: أعتقد أنه لابد من إعادة النظر في التراث العربي وتنقية ما هو عربي قومي إثني مما هو إسلامي عالمي كبير مشع خالد باقٍ للناس جميعاً.

*** نظرة على التفسير القرآني***

مما يلفت الأنظار أنني في القرن الحادي والعشرين لا أرى أحدًا من المفسرين الذين يتعرضون لتفسير القرآن الكريم – بحسب مطالعاتي - ينظر إلى القرآن نظرة تفصيلية، بعيدة عن التعميم، وأقصد بذلك أننا نرى المفسر يعمد إلى التفسير من خلال تسلحه ببعض الأدوات الخاصة مثل: اللغة وعلوم: البيان والمعاني والبديع، والنحو والتصريف ويحاط علمًا ببعض العلوم التي تساعده في التفسير كالإلمام بعلوم القرآن المتنوعة، ويركز كل تفسير على جانب من تلك الجوانب إضافة إلى النبوغ والتركيز على جانب أدبي أو فن لغوي من فنون القرآن، كالزمخشري الذي يتميز تفسيره بالنكات اللغوية، وكالمحرر الوجيز الذي يهتم بالعلوم الشرعية وكالقرطبي الذي يتميز بإضفاء المسائل الفقهية في تفسيره المشهور، وكالطبري الذي يحشو تفسيره بالعنعنات والإسرائيليات.

كان ينبغي علينا أن ننتظم في فهمنا للقرآن صيغة مغايرة لما درج عليه هؤلاء، ولم يُغيِّر أحد المفسرين في طريقة التفسير ذاتها؛ وذلك لكون المفسِّر يعمد إلى الترتيب الموجود في المصحف الشريف باعتبار ذلك الترتيب توقيفي من قِبل الله تعالى، لا يهمني كثيرا أن يكون الترتيب توقيفياً أو غير توقيفي، فلن أمسّ الترتيب، في شيء، ولكني أفتح المصحف فأجدني مع الفاتحة ثم البقرة التي نزلت بعد ١٤ سنة من بدء الدعوة، نزلت البقرة في الشطر الثاني من الدعوة، ويليها آل عمران كذلك ثم النساء والمائدة وكلهن مدنيات، يفتتح بعض المفسرين تفسيره بخطبة طويلة عن موقفه من بعض القضايا حول القرآن، كالموقف من التفسير والتأويل وبيان الفرق بينهما، وكالحديث المطول عن قبوله أو رفضه للنسخ والناسخ والمنسوخ، فهناك من يقبله وهناك من يرفضه، وهناك من يبحث عن موقف وسطي، وبعضهم يسهب في الحديث عن أسباب النزول ويبين أن أسباب النزول تزول بعد فترة، ولا تقتصر على فترة محددة، غير أنه ينسى أنه قال ذلك في المقدمة وعندما يمر بآيات منسوخة وكانت تشريعاً فترة محددة، كآيات بعض الحدود في الزنا، والفرق بينها في سورة النساء

وسورة النور، فإن المفسر ينسى قوله في البدء، ولكل هذا فإن التفاسير لها نفس الطريقة، حتى التفاسير التي تعتبر ثورية كالظلال نهجت نفس الدرب في التناول وإن وقف بعض المواقف إزاء بعض الآيات .

من حق كل مفسر أن يدلي بدلوه في القرآن الكريم شريطة عدة أمور:

- ألا يُخرِج اللغة عن سياقاتها. (وسنجد في الحديث عن اللغة في الفصل الثاني كلاماً يستحق الوقوف أمامه طويلاً)

- ألا يتعسف في التأويل البلاغي ويطبق قواعد بلاغية (خاصة الالتفات) في غير ما يحتمل النص. (وقد قيل إن علوم البلاغة اخترعت لتفسير بعض المعضلات في القرآن)

- ألا يتزمت ويتعصب لرأي وهوى. (وسنجد القرطبي يتحدث عن الهوى في التفسير في الفصل الثاني من هذا السفر)

- ألا يدعي أن فهمه فقط هو الفهم الوحيد الصحيح، وأن غيره لا يفهم مقدار فهمه.

- أن يترك المجال واسعًا للخلافات الفقهية والاختلافات في الفهم، فقد أكد الله تعالى للبشر أن سليمان فهم ما لم يفهمه داود(ففهمناها سليمان)

- ولذا فقد اتفق العلماء على العلوم التي يحتاج إليها المفسر وهي: علم اللغة، علم النحو، علم الصرف، الاشتقاق، المعاني، البيان، البديع، علم القراءات، علم أصول الدين(علم الكلام) علم أصول الفقه، علم أسباب النزول، علم القصص، علم الناسخ والمنسوخ، علم الموهبة، وأضيف علم المناسبة (مناسبة الترتيب: السور والآي)

أحب أن أشير هنا إلى أن التفسير تناوله العلماء باتجاهات متباينة وأحياناً متكاملة أو متعارضة، فهناك التفسير بالمأثور (عن النبي والمأثور عن الصحابة والمأثور عن التابعين) والتفسير في عهد التابعين تطرق الوضع إليه ودخلته إسرائيليات كثيرة.

ثم هناك المدرسة الأخرى وهي التفسير بالرأي، وقد احترز العلماء من تفسير بعض الفرق التي اعتمدت الرأي المذموم (في عرف أهل السنة) وصنفت تفاسير هذه الفرق فيما يأتي: المعتزلة – الإمامية الإثنا عشرية – الباطنية القدامى، وهم الإمامية الإسماعيلية – الباطنية المحدثون، وهم: البابية والبهائية والزيدية والخوارج.

وهناك مدارس أخرى واتجاهات جديدة مثل: تفسير الصوفية، وتفسير الفلاسفة، وتفسير الفقهاء، والتفسير العلمي الذي جدَّ في العصر الحاضر.

وقد استحدثت بعض المدارس والألوان الحديثة التي غلبت على بعض اتجاهات التفسير مثل: اللون العلمي، واللون المذهبي، اللون الإلحادي، واللون الأدبي والاجتماعي.

أما في معنى التفسير ذاته، فهو بالقطع علم جديد على العربية استحدثه العلماء (علماء الدين بالضرورة) للبحث في مسائل القرآن الكريم، ولها تعريفات كثيرة ويختلف تعريف العلم باختلاف النظرة أو المدرسة أو العصر، ولأسباب مادية بحتة سأقتصر جدًا في عرض التعريفات المتعددة طوال السفر ولن أشغل نفسي بالبحث في الخلافيات، وأسوق تعريفين ساقهما الزركشي ذكر فيهما أن علم التفسير هو:" علم يُفهم به كتاب الله المُنزَل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه"(١)

والتعريف الآخر قال فيه:" علم نزول الآيات، وشئونها، وأقاصيصها، والأسباب النازلة فيها، ثم ترتيب مكيها ومدنيها، ومُحكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامها، ومطلقها ومقيدها، ومجملها ومفسرها، وحلالها وحرامها، ووعدها ووعيدها، وأمرها ونهيها، وعِبرها وأمثالها"(٢)

ونرى أن التعريف الثاني مجرد زيادة تفصيل في التعريف الأول، ويمكننا أن نقيس أغلب علومهم ومعارفهم على هذا المنوال، فأحدهم يقصر والآخر يفسر، أحدهم يختصر والتالي له يبسط القول، وما هو موجود في أكثر من ١٨١ تفسيراً أعرفهم حتى اليوم يمكن إجمالهم بعض تنقيتهم في تفسير كبير لا يتجاوز ألفي صفحة دون الدخول في طنطنات، والحادث أنهم أدخلوا في التفسير ما ليس منه مطلقاً، فبعضهم جعله كتاب لغة، ونوقشت عشرات الأطروحات حوله من الناحية اللغوية والناحية البلاغية والصرفية والدلالية وغيرها، وبعض جعله كتاب تاريخ، وبعضهم جعله كتاب سيرة لحياة الرسول، وبعضهم جعله تكئة للهجوم على أهل الكتاب وكتبهم السالفة، وبعضهم اتخذه نصاً صوفياً مقدساً وبه أسرار مكنونة، وبعضهم قسَّم علومه إلى نوعين: علوم للعامة وأخرى للخاصة، وبعضهم أبهم أكثر مما فسَّر، وبعضهم اتخذه مطية بغية خدمة أهداف سياسية، وبعضهم استدل به على الشيء وضده، مما جعل الإمام المفسر الأول يقول:" إن هذا القرآن لحمَّال أوجه".

وبعضهم مكرور القول معاد كأغلب الشعر العربي، ويقول الإمام محمد الطاهر بن عاشور في هذا الصدد:" والتفاسير وإن كانت كثيرة فإنك لا تجد الكثير منها إلا عالة على كلام سابق بحيث لا حظ لمؤلفه إلا الجمع على تفاوت بين اختصار وتطويل. وإن أهم التفاسير تفسير الكشاف للزمخشري،

١-الزركشي، الإتقان في علوم القرآن ، جـ٢، صـ١٧٤

٢-المصدر السابق ، جـ١، صـ١٧٤ وهناك تفريق كبير بين التأويل والتفسير، وقيل إن التفسير أشمل وأعم ويكون في القرآن كله، والتأويل في جزء منه، وقيل إن التفسير يكون للكلمات والتأويل يكون للمعاني فقط، وهكذا يمكن مطالعة هذا كله في كتب التفاسير المتنوعة والرسائل الجامعية الخاصة بعلوم القرآن

والمحرر الوجيز لابن عطية، ومفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي، وتفسير البيضاوي المُلخص من الكشاف، ومن مفاتيح الغيب بتحقيق بديع، وتفسير الشهاب الآلوسي، وما كتبه الطيبي والقزويني والقطب التفتزاني على الكشاف ،وما كتبه الخفاجي على تفسير البيضاوي، وتفسير أبي السعود، وتفسير القرطبي، والموجود من تفسير الشيخ محمد بن عرفة التونسي(الورغمي) من تقييد تلميذه الأبي وهو بكونه تعليقاً على تفسير ابن عطية أشبه منه بالتفسير، لذلك لا يأتي على جميع آي القرآن وتفاسير الأحكام، وتفسير الإمام محمد بن جرير الطبري، وكتاب درة التنزيل المنسوب لفخر الدين الرازي، وربما للراغب الأصفهاني."([1])

والبارز أمامنا من قول الإمام أن أغلب التفاسير تستقي مادتها من بعضها البعض، وهناك من العلماء من يجد لديه حصيلة كبيرة وواسعة لكثرة ما قرأ في التفسير فيعمد إلى وضع تفسير باسمه ليخلده ذلك – ظاناً – أنه يخدم كتاب الله، ويطلق على تفسير أسماء جديدة تنبع من موقفه الفقهي وغالباً ما يكون وسطياً، فيقول التفسير الوسيط، أو زهرة التفاسير، أو ..أو.. وبتحليل التفسير نجد أن أغلب مادته (على الأقل ٨٥-٩٥) بالمائة من كتب سابقة وإضافاته لا تتجاوز الـ٥٪ في أكثر الأحيان.

وبالأحرى هي كتب تفسير تشوق إلى العودة للمصدر لمطالعة التوضيح الكامل.

* تطور التفسير عبر التاريخ*

التفسير في عصر الصحابة: كان يعتمد على عدة مصادر وهي:

المصدر الأول: القرآن الكريم: فما أُوجز في موضع قد يُبسط في موضع آخر، وما أُجمل في موضع قد يُبين في موضع آخر، كقصة إبليس وآدم، وقصة فرعون وموسى وهكذا.

المصدر الثاني: النبي صلى الله عليه وسلم. حيث فسَّر الرسول بعض الآيات (في المشهور) وقد ورد عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: " ألا وإني أوتيت القرآن ومثله معه" أي من التفسير والفهم لأحكامه.

وقد حدث وضع كثير على الرسول الكريم في تفسيراته لبعض آي القرآن والذي أعتمده وأختاره أنه فسَّر القليل فقط، وقد فندها جيدا الأستاذ أحمد أمين في كتابه فجر الإسلام فليراجعها من شاء هناك.([2])

١-الإمام محمد الطاهر بن عاشور – التحرير والتنوير ، دار سحنون بتونس ، ١٩٩٧، جـ١، صـ٧ من التمهيد

٢- هناك من قال إن الرسول فسّر القرآن الكريم كله، وفريق آخر يذهب إلى أنه لم يفسر إلى القليل ولكن أدلته ، راجع محمد حسين الذهبي التفسير والمفسرون، مكتبة وهبة، ط1992،٥،جـ1 صـ55-50 وقد قال الإمام محمد بن جرير الطبري التفسير على أربعة أوجه وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يُعذر أحد بجهالته ،وتفسير تعرفه العلماء ، وتفسير لا يعلمه إلا الله" تفسير ابن جرير ، جـ1، صـ 25 وهذا كلام فيه نظر، فقد حجب أغلب التفسير عن الناس ولعل العقل يأبى ذلك؛ إذ كيف يكون محجوباً عن المرء أغلب التفسير ويُكلف بكل ما جاء في القرآن؟ ولعل قوله يصلح لزمانه لا زماننا نحن

المصدر الثالث: الاجتهاد وقوة الاستنباط، وكانوا يستعينون في ذلك بمعرفة أوضاع اللغة وأسرارها، ومعرفة عادات العرب، ومعرفة أحوال اليهود والنصارى في جزيرة العرب وقت نزول القرآن، وقوة الفهم وسعة الإدراك. قال مسروق:" جالستُ أصحابَ محمدٍ صلى الله عليه وسلم فوجدتهم كالإخاذ- يعني الغدير- فالإخاذ يروي الرجل، والإخاذ يروي الرجلين، والإخاذ يروي العشرة، والإخاذ يروي المائة، والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم".(١)

أشهر مفسري الصحابة هم: الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس، وأُبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وابن الزبير وغيرهم.

وقد تميز التفسير في تلك المرحلة بعدة مميزات كما ذكرها الإمام الذهبي، أوجزها كالآتي:

- لم يُفسَر القرآن جميعه، قلة الاختلاف بينهم في فهم معانيه، الاكتفاء بالمعنى الإجمالي، ندرة الاستنباط العلمي للأحكام الفقهية، وعدم الانتصار للمذاهب الدينية بما جاء في كتاب الله. عدم التدوين .

عصر التابعين: مصادر التفسير في عصر التابعين: القرآن الكريم، والنبي صلى الله عليه وسلم، أقوال الصحابة، وما أخذوه من أهل الكتاب، والاجتهاد العقلي.

واشتهرت ثلاث مدارس في التفسير في عصر التابعين: مدرسة مكة: وقامت على ابن عباس وعنه أخذ أصحابه، وأشهر رجالها: سعيد بن جبير، مجاهد، وعكرمة، وطاووس.

ومدرسة المدينة: وقامت على أُبي بن كعب وعنه أخذ أصحابه وأشهر رجالها: زيد بن أسلم، وأبو العالية، محمد بن كعب القرظي.

ومدرسة العراق: وقامت على عبد الله بن مسعود وأخذ عنه رجال تلك المدرسة وأشهرهم: علقمة بن القيس، ومسروق، والأسود بن يزيد، ومرة الهمذاني، وعامر الشعبي، والحسن البصري، قتادة السدوسي.

وقد اتسم التفسير في ذلك العصر بـ: دخول الكثير من الإسرائيليات، والاحتفاظ بطابع التلقي والرواية، بدء ظهور الخلافات المذهبية، كثرت الخلافات بينهم مقارنة بما كان في عصر الصحابة.

التفسير في عصر التدوين: من نهاية عهد بني أمية وأول العصر العباسي. حيث بدأ التدوين في الكتب، ثم انفصل التفسير عن الحديث النبوي، وهناك خلافات كثيرة حول أول من ألّف في التفسير مدوناً كاملاً، ولا يعنينا الخلاف كثيرا. ثم إنهم قد اختصروا الأسانيد، ودخل الوضع في التفسير والتبس الصحيح بالعليل، ثم حدثت نقلة للأمام باختلاط الفهم العقلي للآيات بالتفسير النقلي عن الصحابة والتابعين.

١- محمد حسين الذهبي: التفسير والمفسرون، جـ١، صـ ٣٨، وهو يقصد تفاوتهم في فهمهم للقرآن وقد وردت الأخبار أن عمر بن الخطاب وغيره حيث عليهم الكثير من مسائل القرآن (منعتمد كثيرا على كتاب الذهبي في الحديث عن التفسير في هذا المفتاح)

ثم إن التفاسير في تلك الفترة غلب عليها الفن الذي برع فيه المفسر، فالنحوي يهتم بالإعراب فوق غيره من العلوم كأبي حيان في تفسيره البحر المحيط، وصاحب العلوم العقلية يهتم بأقوال الحكماء والفلاسفة، كالفخر الرازي، وصاحب الفقه كالقرطبي والجصاص، وهكذا.

انقسم التفسير بعد ذلك إلى نوعين كبيرين:

الأول: التفسير بالمأثور. (ومنه تفاسير كثيرة)

الآخر: التفسير بالرأي الحميد. ([1]) (وفيه عشرات التفاسير) ويقصد به الاجتهاد، وهو تفسير القرآن:" بالاجتهاد بعد معرفة المفسِّر لكلام العرب ومناحيهم في القول، ومعرفته للألفاظ العربية ووجوه دلالتها، واستعانته في ذلك بالشعر الجاهلي ووقوفه على أسباب النزول، ومعرفته بالناسخ والمنسوخ من آيات القرآن." ([2]) وكغيره من العلوم وقف العلماء منه موقف المتسامح وفريق آخر وقف موقف المتشدد.

ثم ظهرت تفاسير الفرق الإسلامية على خلاف كبير فيما بينها، وهو تفسير بالرأي المذموم. ومنها فرق المعتزلة، والمرجئة، والخوارج، والشيعة. والقاسم المشترك لتلك الفرق أنها تقيم مذهبها وتدعم تعاليمها على أسس دينية من القرآن. والغالب عندي (كما سيأتي في القسم الثاني من الكتاب) أن أهم أسباب ذلك هو الانتصار للمذاهب السياسية التي تدثرت بدثار ديني .

هذا هو حال التفسير، ولا يخفي أنه قد انتابته يد المذاهب والفرق بتطويعها الفهم الإنساني من القرآن على غير ما وُضعت له، ونجد حجم الخلافات أكثر من حجم الاتفاقات في الأمور التي تتعلق بالسياسة، ومن هنا أطلقت صيحتي في هذا الكتاب بضرورة تفسير القرآن تفسيراً سياسياً، يهتم بترتيب النزول ومقتضيات الأحوال، ومعالجة القصّ وخاصة عن بني إسرائيل برؤية جديدة، وبفهم جديد، وسيتضح في مباحث الكتاب أن هناك أمورًا لا تقع عليها أغلب الأعين والأبصار في أغلب التفاسير وهي منثورة في القرآن الكريم، كالحكم بالوراثة النبوية، وأن الأنبياء شجرة وراثية بدأت بإبراهيم وانتهت بمحمد وفي القرآن ما يثبت ذلك.

وسنجد فصلاً بعنوان "دين محلي أم فهم ضيق" ومن خلاله سنستقصي بعض آيات القرآن التي تؤكد أن القرآن منزل على النبي ليخرج الوثنيين العرب – وحدهم – من ضلالاتهم، والإشارات إلى العالمية سياسية أكثر مما هي دينية، وسنجد أمورًا كثيرة في هذا الباب، وسنجد في الفصل الخاص

١-تمييزاً له عن الرأي الفاسد الذي سترى القرطبي يذمه وأهم التفاسير بالرأي الفاسد تفاسير الشيعة كلها ،دون استثناء ، فقد حمّلوا النص ما لا يحتمل وجعلوه مستندا لمذهبهم قسرا

٢-الذهبي التفسير والمفسرون، جـ١، صـ٢٤٦

لإلنبوة أن أمر النبي لم يشبه الأنبياء قبله، وسنجد تلميحات في علوم القرآن وخاصة الترتيب الخاص بالسور تنازعته السياسة، وسنجد خلافات كثيرة حول الكثير من الأمور، وخاصة عند نشأة المذاهب السياسية التي قاتلت بعضها البعض من أجل الوصول للسلطة وكلها تتحدث باسم الدين كالتيارات الغالبة في يومنا.

لكل هذا قسّمت الكتاب إلى قسمين: الأول ديني: تحت عنوان: الدين والرسالة. في ثلاثة فصول، **الأول** بعنوان: الجنون، كمنطلق حضاري وعقلي وعلاقته بالدين .
و**الفصل الثاني** بعنوان: القرآن والنبوة. (صدام محمد للعرب وأهل الكتاب) وينقسم إلى مبحثين، **المبحث الأول**: النبوة.
و**المبحث الثاني:** القرآن الكريم وإشكالياته المتنوعة قديمًا وحديثاً.
و**الفصل الثالث** بعنوان، الفصل الثالث: مشكلات متجددة.
أما **القسم الثاني** وهو قسم سياسي جاء تحت عنوان: الحكم على أساس ديني. قسَّمته لأسباب منهجية إلى فصلين.
الفصل الأول جاء تحت عنوان: دين محلي أم فهم ضيق؟
و**الفصل الثاني** جاء تحت عنوان: الشيعة والخوارج.
ثم أخيراً الخاتمة، والفهرس التفصيلي للموضوعات.

آملاً أن أكون قد أخرجت ما يعتمل في صدري اليوم حول تلك القضايا الكلية الكبرى التي شغلتني طوال العشر سنوات السابقة، ولعلى أكرر القول بأني قد أكون أخطأت أكثر مما أصبت، ولعلي أُستغلق عليَّ الفهم في الكثير من المواطن، وكتبتُ بغرورٍ أحياناً وبحماسٍ أو اندفاعٍ أحايين كثيرة، ولكني أريد بالخطأ أن أخرج تفكيري وأعرضه حتى يعلمني من هو أكثر علماً، ولا أسوق هذا الكلام تواضعاً ولا تفاخراً بل أقوله على وجه الحقيقة فحسب.

لعل الهدف من الكتاب لا يخلو من أغراض دنيوية، لعلها نمت أثناء العمل، ففي البدء كان العمل مجرد شهادة وتسجيل خواطر ثم تدرج حتى صار سفرًا، وإني قد أتبعه قريباً بكتاب آخر موثق في أغلبه بالوثائق التي أمدتني بها مصادري حول الإسلام السياسي وفضائح كثيرة وصدمات متنوعة، وأكرر أننا سنكتشف قريباً أن الزيف هو الغالب والدين من كل زيف برئ مهما طال مدى الزيف، ولا ينسى أحد أن الدولة الأموية عاشت أقل من قرن والعباسية استمرت حتى١٥١٧، والعثمانية بقت حتى ١٩١٤م، وانكشفت أقنعة لن تستمر مثيلاتها طويلاً، فإلى هذه المحنة الجديدة.